

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدرس الخامس عشر

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، أما بعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

الأصل الثالث: معرفة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، وهاشم من قريش، وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وله من العمر ثلاث وستون سنة؛ منها أربعون قبل النبوة، وثلاث وعشرون نبياً ورسولاً، نبي بـ «اقرأ» وأُرسل بـ«المدثر»، وبلده مكة وهاجر إلى المدينة ، بعثه الله بالندارة عن الشرك، ويدعو إلى التوحيد، والدليل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَتَبَارَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ١-٧] ومعنى ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾: يُنذِرُ عَنِ الشِّرْكِ ويدعو إلى التوحيد، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عَظِّمُهُ بالتوحيد، ﴿وَتَبَارَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ، ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ الرُّجْزُ: الأصنام، وهجرها تَرْكُهَا والبراءة منها وأهلها . أخذ على هذا عشر سنين يدعو إلى التوحيد، وبعدَ العشرِ عَرَجَ به إلى السماءِ وفُرِضَتْ عليه الصلوات الخمس، وصلى في مكة ثلاث سنين، وبعدها أُمِرَ بالهجرة إلى المدينة.

قال المؤلف رحمه الله تعالى : ((الأصل الثالث: معرفة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم)) ؛ هذا الأصل الثالث من أصول الإيمان ، وعرفنا أن أصول الإيمان ثلاثة: معرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

وهذا الأصل له أهمية عظيمة ومكانة عليا ؛ لأن معرفة العبد لله ومعرفة العبد بدين الله جل وعلا لا تكون ولا تتم ولا تنهي إلا من طريق الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولهذا من لم يعرف الرسول ﷺ لا يعرف الله ولا يعرف دينه ، لأنه عليه الصلاة والسلام واسطة بين الله جل وعلا وبين عباده في إبلاغ دينه ، وهكذا كل الرسل وسائط بين الله وبين العباد في إبلاغ الدين ؛ يتنزل عليهم الوحي من الله جل وعلا ويبلغون ، والله تعالى يقول : ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النور: ٥٤] ، فالرسل واسطة في إبلاغ الدين ، لأن حكمة الله

جل وعلا لما خلق الخلق ليعبدوه اقتضت أن لا ينزل الوحي على الناس أجمعين ، أن لا ينزل الملائكة بالوحي على الناس أجمعين ، وإنما اقتضت حكمة الله عز وجل أن يصطفي جل وعلا من الناس رسلاً ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] ؛ فهو جل وعلا يصطفي من الناس صفوتهم وخيارهم ليكونوا رسلاً بينه وبين عباده في إبلاغ دينه يبلغون دين الله ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٧] مهمتهم هذه البلاغ إبلاغ دين الله ؛ وهذه مهمة المرسل ، المرسل : هو من يقوم بإبلاغ ما أرسله به مرسله .

فالرسل يبلغون دين الله وهم واسطة بين الله جل وعلا وبين العباد في إبلاغ الدين ، ولهذا ليس هناك سبيل لمعرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأوامره ونواهيه ومعرفة دينه وشرعه إلا من طريق الرسل ، والرسل سبيلهم في هذه المعرفة الوحي ، قال الله عز وجل لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿وكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] فيُنزل الله سبحانه وتعالى وحيه على أنبيائه ورسله ثم هم يبلغون وحي الله وتنزيله إلى الناس ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْزِلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ وَنَحْنُ بِهِ شَاهِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٥] فالرسل هذه مهمتهم ؛ وسائط بين الله وبين العباد في إبلاغ دين الله جل وعلا .

وهذا يبين لنا أهمية معرفة الرسول وأن من لم يعرف الرسول عليه الصلاة والسلام لا يعرف ربه ولا يعرف دينه ، ولا يعرف كيف ينال رضا ربه ، وكيف يفوز بثوابه ، وكيف ينجو من سخطه ومن عقابه ، لا يعرف ذلك إلا من طريق الرسل عليهم صلوات الله وسلامه ؛ فالطريق إلى الهدى والحق مسدود إلا من طريق الرسول ﷺ . وإذا فمعرفة الرسول ﷺ أصل من أصول الإيمان وأساس من أسس الدين ، بمعنى أن الدين لا يمكن أن يقوم إلا بمعرفة الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه هو واسطة بين الله وبين العباد في معرفة دين الله وأمره ونهيه وأسمائه وصفاته ؛ هذه كلها إنما تُعرف من طريق الرسول ﷺ .

ولهذا فإن حاجة الناس وضرورتهم إلى المعرفة بالرسل أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب والماء والهواء وغير ذلك ؛ لأن إذا انحبس عن العبد الطعام والشراب فإنه يموت ويفارق هذه الحياة الدنيا ، لكن إذا لم يُغفر بالوحي ولم يكن من أهل إتباع الوحي فإنه يبوء بعذاب الله وسخطه في الدنيا والآخرة . فحاجة العبد وضرورته إلى معرفة الرسل ومعرفة ما جاءوا به وإتباع سبيلهم أشد الحاجات وأعظم الضرورات ؛ ولهذا قال

رحمه الله : ((الأصلُ الثالثُ)) ، وسبق أيضاً أن أشرت إلى جملة من الأحاديث الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم التي جمعت هذه الأصول الثلاثة ؛ معرفة الله ومعرفة دينه ومعرفة نبيه ﷺ .

والناس أجمعين يوم يقومون بين يدي رب العالمين يوم القيامة يُسألون عن الرسل ؛ فثمة سؤال يوجّه للناس أجمعين يوم القيامة : ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] ، كما أنهم يسألون أيضاً : «ماذا كنتم تعبدون» الأول قوله: «ماذا كنتم تعبدون» سؤال عن الإخلاص والتوحيد ، وقوله: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ سؤال عن الإقتداء والمتابعة وسلوك سبيل الأنبياء والمرسلين ؛ لأنه لا يُعبد إلا الله ، ولا يُعبد الله إلا بما جاء عن رسله عليهم صلوات الله وسلامه .

قال : ((الأصلُ الثالثُ: معرفةُ نبيكم محمدٍ صلى الله عليه وسلم)) ؛ وهذه المعرفة تتناول جوانب حياته عليه الصلاة والسلام ؛ بمعرفة نسبه وحسبه الشريف صلوات الله وسلامه عليه ، ومعرفة نشأته ، ومعرفة سيرته ومتى نبي وأرسل ومتى هاجر ، ومعرفة جهاده في سبيل الله ، وأعظم ما ينبغي أن يُعرف في هذا الباب معرفة ما يدعو إليه وما ينهى عنه وما يأمر به ، وأعظم ما أمر به عليه الصلاة والسلام توحيد الله ، وأعظم ما نهى عنه صلوات الله وسلامه عليه الشرك بالله عز وجل .

والمصنف رحمه الله ذكر هنا خلاصةً نافعةً وزيداً مفيداً في باب معرفة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ؛ بدأ أولاً بذكر نسبه ﷺ قال : ((وهو مُحَمَّدٌ)) ؛ وهو عليه الصلاة والسلام له أسماء كثيرة وكل أسمائه دالة على معاني وعلى مسميات وعلى صفاتٍ فيه عليه الصلاة والسلام ، و«مُحَمَّدٌ» هذا الاسم يدل على ما كان عليه ﷺ من الحمد لله جل وعلا وما كان عليه أيضاً من صفات الخير والوفاء والصدق والأمانة وغير ذلك صلوات الله وسلامه عليه . وقد ذكره الله جل وعلا بهذا الاسم في مواضع من القرآن ، مثل قوله جل وعلا : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] وقوله : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وآيات في القرآن يذكر فيها نبيه عليه الصلاة والسلام بهذا الاسم العظيم .

قال : ((وهو محمدُ بنُ عبدِ الله بنِ عبدِ المطلب بنِ هاشمٍ، وهاشمٌ من قريشٍ، وقريشٌ من العرب، والعربُ من ذريةِ إسماعيل بنِ إبراهيم الخليل عليه وعلى نبيينا أفضلُ الصَّلاةِ والسلامِ)) وقد اصطفاه الله جل وعلا من خير الناس حسباً ونسباً ، والأنبياء يبعثون في أشرف الناس حسباً ونسباً وأعلامهم مكانةً وصفاتاً في الخير والنبيل ، وقد جاء في صحيح مسلم عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((إن الله اصطفى بني إسماعيل من العرب)) إسماعيل أي ابن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام ، قال : ((إن الله اصطفى بني إسماعيل من العرب ، واصطفى من بني إسماعيل كنانة ، واصطفى من كنانة قريشاً ، واصطفى

من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم؛ فأنا خيارٌ من خيار)) أي من خيار الناس نسباً وحسباً وأصلاً صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

وقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام أحاديث في هذا المعنى عديدة تبين فضل نسبه وحسبه عليه الصلاة والسلام ، وأيضاً ما تميز به ﷺ من النشأة المباركة ؛ بأن نشأ على الصدق وعلى الأمانة ، وعلى البغض للأصنام والأوثان والأزلام وغير ذلك ، وعلى بقاءه على سلامة الفطرة ولم يدخل في شيءٍ من دين قومه ﷺ ، قد جاء عن الإمام أحمد أنه قال : «من زعم أن مُحَمَّدًا ﷺ كان على شيءٍ من دين قومه فقد أعظم على الله الفرية»؛ فهو عليه الصلاة والسلام لم يكن على شيءٍ من دين قومه . وقول الله سبحانه وتعالى في سورة الضحى : ﴿وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] ، ليس المراد بقوله «ضالاً» أي على دين قومك كما قد يسيء البعض فهم هذه الآية، وإنما المراد «ضالاً» أي عن تفاصيل الشرائع وتفاصيل الأحكام ، فلم يعرف عليه الصلاة والسلام منها شيئاً إلا بعد أن نزل عليه وحى الله جل وعلا ، وهذا يدل عليه قول الله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] .

قال : ((وله مِنَ الْعُمُرِ: ثلاثٌ وستون سنة)) أي عمره عليه الصلاة والسلام ومدة حياته هو هذا ؛ ثلاث وستون سنة ، عاش ﷺ هذه المدة ثلاث وستون سنة ، وأخبر أن أعمار أمته ما بين الستين إلى السبعين ، وكان هو عليه الصلاة والسلام ثلاث وستين سنة صلوات الله وسلامه عليه .

ثلاث وستون سنة؛ أربعون منها قبل النبوة كما قال المصنف رحمه الله : ((منها أربعون قبل النبوة)) فهو عليه الصلاة والسلام لم ينبأ إلا بعد أن بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ؛ حينئذ نبئ ، ومعنى ذلك أن أربع وثلاثين سنة من حياته وعمره صلوات الله وسلامه عليه كل ذلكم كان قبل النبوة ، أربعين سنة كلها كانت قبل النبوة قبل أن ينبأ ، وهو عليه الصلاة والسلام عاشها عيشاً كريماً متصفاً بالأخلاق الفاضلة والآداب الرفيعة ، مشهوراً في قومه بالصدق والأمانة والبعد عن جميع صفات السوء وأخلاق السوء وتعاملات السوء ، بعيداً عن ذلك عليه الصلاة والسلام كله مع أنه نشأ في مجتمع جاهلي تكثر فيه الضلالات وخيم فيه الباطل وتنوعت فيه في الناس الضلالات والأهواء والباطل! لكن ربه سبحانه وتعالى حماه وصانه ، ولم يدخل في حياته في شيءٍ من دين قومه صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((منها أربعون قبل النبوة، وثلاثٌ وعشرون نبياً رسولاً))؛ ثلاثٌ وعشرون أي من عمره كان عليه الصلاة والسلام نبياً رسولاً ، وهذه الثلاث والعشرون مقسومة بين مكة والمدينة ؛ ثلاث عشرة سنة في مكة ، وعشر سنوات في المدينة ، فهذه حياته أو تقسيم حياته ؛ أربعون قبل النبوة ، وثلاث وعشرون سنة نبياً

ورسولاً ، ومدة رسالته عليه الصلاة والسلام منذ أرسل إلى أن مات مقسومة بين مكة والمدينة ، مكث في مكة ثلاثة عشرة سنة وفي المدينة عشر سنوات .

قال : ((نُبِّئَ بِ «أقرأ» وَأُرْسِلَ بِ«المدثر»)) ؛ نُبِّئَ بِ «أقرأ» : أي أول ما نزل عليه الوحي وبدأ عليه الوحي بأن نزل عليه صدر سورة «أقرأ» ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ١-٤] ؛ فكان عليه الصلاة والسلام في الغار يتحنث فجاء جبريل ونزل عليه وقال : أقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، هو عليه الصلاة والسلام نبيّ أمي ، نشأ عليه الصلاة والسلام أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، قال : أقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، قال : أقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، قال : ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ فنزلت عليه هذه الآيات وبها نبئ ، و«نبي» : أي صار نبياً ؛ من النبأ الذي هو الخبر ﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ تَبَانِي الْعَلِيمُ الْخَيْرُ﴾ [التحریم: ٣] أي من أخبرك وأعلمك وأطلعك؟ فهو عليه الصلاة والسلام نبيّ ب «أقرأ» : أي أول ما بدأه الوحي وأصبح نبياً بأن نزلت عليه هذه الآيات ، وهو في هذه اللحظات نبيّ وجاءه الوحي ولكن لم يؤمر بالبلاغ ، لم يُبعث إلى قومه بعد وإنما نبئ وتنزل عليه وحي الله والتقى بملك الله جبريل عليه السلام لكنه لم يؤمر بالبلاغ ، فرجع إلى بيته عليه الصلاة والسلام وهو يرعد ويقول لزوجته خديجة ؑ : ((دثرتني)) أي غطيني بالدثار، فغطته وذكرت له ما هو عليه من الأخلاق والسجايا والآداب والطباع الكريمة وقالت : «لا يضيعك الله ولا يخيبك الله» .

فنبئ بهذه الآيات «أقرأ» ، وأرسل بالمدثر كما قال المصنف : ((وَأُرْسِلَ بِ«المدثر»)) أي بسورة المدثر ، وسيأتي عند المصنف الآيات مع شرحها ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ حينها أمر بالندارة وبعث إلى قومه . وعندما نزلت عليه أقرأ أنقطع الوحي ولبث وقتاً ثم نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ وبعدها تتابع عليه صلوات الله وسلامه عليه الوحي .

قال : ((وَبَلَدُهُ مَكَّةَ وَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ))؛ بلدُهُ: أي التي وُلد فيها ونشأ فيها حياته هي مكة ، فهو عليه الصلاة والسلام ولد في مكة ونشأ في مكة ، أمضى حياته ونشأته في مكة ؛ اللهم إلا الوقت الذي كان عند المرضعة السعدية في البرية وإلا حياته أمضاها عليه الصلاة والسلام منذ ولد في مكة .

قال : ((وَبَلَدُهُ مَكَّةَ وَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ)) عرفنا أن هجرته إلى المدينة بعد ثلاث وخمسين سنة من عمره حيث عاش في المدينة عشر سنوات صلوات الله وسلامه عليه ، قال : ((وهاجر إلى المدينة)) وسيأتي كلام المصنف رحمه الله تعالى عن الهجرة وما يتعلق بها .

قال : ((بَعَثَهُ اللَّهُ بِالنَّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَيدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ)) ؛ بَعَثَهُ اللَّهُ بِالنَّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ: أي بإنذار قومه وتحذيرهم من الشرك بالله الذي هو أعظم الذنوب وأشد الموبقات وأكبر الكبائر وأعظم الجرائم والآثام ، فَبُعِثَ بالنذارة من الشرك ، وبال دعوة إلى التوحيد؛ وهو أول شيء بدأ به قومه عليه الصلاة والسلام ، فقومه لم يسمعوا منه في بدأ دعوته إلا الدعوة إلى التوحيد ، بل مكث عليه الصلاة والسلام منذ بُعث عشر سنوات وهو لا يدعو إلا إلى التوحيد ، عشر سنوات لا يسمعون منه إلا التحذير من الشرك والدعوة إلى التوحيد ، وهكذا شأن الأنبياء والرسل قبله عليه الصلاة والسلام أول ما يقرع سمع أقوامهم منهم الدعوة إلى توحيد الله ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ، ونبينا عليه الصلاة والسلام أول شيء سمعه قومه منه : ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) ، والقوم يعرفون معنى «لا إله إلا الله» وأنها تعني البراءة من الأصنام والأوثان وإخلاص العبادة لله لوعلا ، ولهذا لما قال لهم ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) قالوا : ﴿أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:١٥] ، وأيضاً قال تعالى : ﴿وَأَنْطَلِقُ الْمَلَائِكَةُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْسُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ [ص:٦٦] ، عرفوا أن «لا إله إلا الله» تعني نبذ الآلهة وبطلان عبادتها وأن العبادة حق لله سبحانه وتعالى ، عرفوا معنى هذه الكلمة ومدلولها . فهو عليه الصلاة والسلام أول ما بدأ قومه به من الدعوة : الدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك ؛ ينذرهم من الشرك ومن عبادة الأصنام ويبين لهم أنها باطلة ، وقام بهذا الأمر أتم قيام عليه الصلاة والسلام ؛ ينذر قومه من الشرك ومن عبادة الأصنام ، قال الله جل وعلا : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر:٩٤] فكان هو هذا شأنه .

ولك هنا أن تتأمل في شدة هذا الأمر ؛ يعني هو في مجتمع الشرك فيه تخيم ، والضلال مغطي المجتمع بأسره ، والناس في جاهلية جهلاء وضلالة عمياء ، قال عليه الصلاة والسلام : ((إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجمهم وعربهم إلا بقايا من أهل الكتاب)) ، والجميع كلهم حَيَمَ عليهم الضلال والباطل أشد تخيم ، فَبُعِثَ عليه الصلاة والسلام في هؤلاء وحيداً ، وبُعِثَ في شيءٍ مُصَادِمٍ لعقائدهم، لنحلهم ، لأهوائهم ، لطرائقهم ، لعقائد آبائهم مصادم تماماً ؛ وهذا من أصعب ما يكون ، يأتي إلى المجتمع مصادماً لكل ما عليه المجتمع ، وكل ما نشأ عليه المجتمع وعلى عقائد الآباء والأجداد ، ولما أمره الله سبحانه وتعالى مضى بكل ثباتٍ وعزيمة مبلغاً يغشى أنديتهم وتجمعاتهم ويناديهم بأسمائهم وبعشائرتهم وقبائلهم؛ ((إني رسول الله إليكم جميعاً)) ، ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) ويبيدي ويعيد ، مضى سنوات عليه الصلاة والسلام في الدعوة إلى توحيد الله . سقَّه قومه وجهلوه ، ورموه بالجنون ، ورموه بالكهانة والسحر ، ورموه بكل عظيمة ، وحذَّروا منه وبثَّوا حوله الدعايات المغرضة ، وآذوه عليه الصلاة والسلام الأذى الشديد ، وكان الناس في شوارع مكة

يهتفون بكل قادم : إن مُجْداً مجنون، إن مُجْداً كذا، إن مُجْداً كذا ؛ دعاية مكثفة ضده عليه الصلاة والسلام وضد دعوته وهو صابر كما صبر أولو العزم من الرسل ، داعي إلى الله : ((يا قوم ، يا قوم ، يا قوم)) يدعو ويكرر ويبيد ويعيد ، يؤذى فيصبر ، وأشدت أذاهم عليه وهو صابر ولم يثنه ذلك عن المضي في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ؛ إلى أن أخرجه قومه من بلده وتمالؤا على قتله عليه الصلاة والسلام ودبروا مؤامرة لقتله في فراشه ليلاً ، وفي ذاك الوقت هاجر عليه الصلاة والسلام وخرج من مكة ، خرج من مكة ليس برغبة منه بالخروج عن هذا البلد ولكن لأن قومه أشد أذاهم عليه في هذا البلد وتمالؤا على قتله والإجهاز عليه والقضاء عليه .

ثم مع هذا العداء الشديد والكيد والتآمر على قتله جعل علياً عليه السلام على فراشه ومضى وخرج متسللاً ليلاً مع أبي بكر الصديق صاحب النبي ﷺ ، وأمر علياً أن يعيد الأمانات ، كان رجلاً معروفاً بالأمانة، وكان قومه إن خافوا على شيء لا يجدون أحداً مثله يأتمنونه ؛ فكانوا يضعون عنده الأمانات والودائع معروف عندهم بالأمين ، فأمر علي أن يعيد الأمانات إلى أصحابها ، ما قال هؤلاء عادوني وآذوني وأخرجوني من بلدي ولا يستحقون من يحفظ لهم أمانتهم وأنا أوديت ، لم يتأول لنفسه شيئاً ؛ أعاد الأمانات كاملة إلى أصحابها وخرج عليه الصلاة والسلام مهاجراً إلى المدينة .

قال : ((وبلده مكة وهاجر إلى المدينة)) مكة مكث فيها بعد أن أرسل ثلاثة عشر سنة ، والمدينة عشر سنوات إلى أن مات ، ثم مات عليه الصلاة والسلام ودفن بالمدينة .

قال : ((بعثه الله بالندارة عن الشرك، ويدعو إلى التوحيد، والدليل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ (٣) وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)﴾ هذه الآيات بداية الرسالة وبداية البعثة ، وهي تحمل في مضمونها زبدة الرسالات وخلاصة دعوة النبيين ، فهي تحمل قاعدة الدين وأساسه ، لأنه أول ما بُعث وأمر بالندارة ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ أول ما بُعث ونزل عليه هذه الكلمات ؛ فهذه الكلمات تحمل في معانيها وطياتها ومضامينها قاعدة الدين وأصله وأساسه وزبدة دعوة النبيين والمرسلين ؛ ولهذا اعتنى الشيخ رحمه الله ببيان معاني هذه الآيات ومضامينها ومدلولها باختصار بما يحتمله هذا المختصر .

قال : ((ومعنى ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ يُنذِرُ عَنِ الشَّرِكِ ويدعو إلى التَّوْحِيدِ)) ؛ ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ أي أنذر قومك ، من ماذا ؟ قومه على الشرك على الجاهلية على عبادة الأصنام ، مكة امتلأت بالأصنام ، والبيت الحرام امتلأ أصناماً في داخله وحوله ، امتلأ بالأصنام حتى كسرهما عليه الصلاة والسلام بيده يوم فتح مكة ﴿وَقُلْ جَاءَ

الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ [الإسراء: ٨١] ، وإلا كانت الأصنام كثيرة محيطة بالبيت من كل جانب؛ تُعبد ويُذبح لها وينذر وتُصرف لها أنواع العبادات ، فأول ما نزل عليه بالبعثة والرسالة : ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ أي: أنذر قومك من الشرك وأمرهم بالتوحيد ، قال الله تعالى : ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥] ؛ مبشرين بالجنة لمن وُحِّد الله ومنذرين من النار لمن أشرك بالله سبحانه وتعالى .

قال : ((﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عَظِّمُهُ بِالتَّوْحِيدِ)) ولهذا هذه الكلمة العظيمة التي تتردد على ألسنة المسلمين في صلاتهم وفي أذكارهم «الله أكبر» هذه كلمة تعظيم لله ؛ تعظيم لله بتوحيده وإجلاله سبحانه وتعالى وقدره حق قدره ، ولهذا المشرك لا يكبر الله ، الذي يعبد مع الله غيره لا يكبر الله ، قال الله عز وجل : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] ، المشرك الذي يدعو الوثن ويعبد الصنم ويتعلق بغير الله هو لا يكبر الله {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} أي عظمة ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣-١٤] ، فالمشرك الذي يعبد مع الله غيره لا يكبر الله ، فتكبير الله لا يكون إلا بتوحيده وإخلاص الدين له ، أما المشرك ليس مكبراً ولا معظماً لله ولا يقدر ربه سبحانه وتعالى حق قدره .

قال : ((﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عَظِّمُهُ بِالتَّوْحِيدِ)) أي عظم ربك بالتَّوْحِيدِ .

((﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشَّرِكِ)) بالحذر منه والتحذير منه وإنذار القوم من الوقوع فيه ؛ وهذا فيه أن أعظم أمرٍ ينبغي على العبد أن يتطهر وأن يتنزه عنه وأن يجانبه وأن يبتعد عنه الشرك بالله سبحانه وتعالى . والشرك أنجس شيء وأوسخه ، والمؤمن مطالب بأن يتنزه عن الشرك وأن يتطهر وأن يبتعد عنه ، قال : ((﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشَّرِكِ .

((﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ الرُّجْزُ: الأصنام)) ؛ ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ أي أهجر الأصنام ، وكيف يكون هجرها ؟ قال المصنف رحمه الله : ((وهجرها: تَرْكُهَا والبراءة منها وأهلها)) هذا هو هجرها الذي أمر به في هذه الآية ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ أي تركها والبراءة منها ومن أهلها مثل ما قال الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم الخليل ﴿وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨] وقال : ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٩] ، فلا يتم توحيد العبد حتى يبرأ من الكفر وأهل الكفر ويباعد عنهم وينابذهم ، وهذا واضح في

الآية ودلالاتها عليه ، لا يتم للإنسان التوحيد حتى يهجر الأصنام وأهلها ويجانبهم ويباعد عنهم ويحاذر منهم ويحذر . قال : ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ الرُّجْزُ : الأصنام، وهجرها: تَرَكُها والبراءة منها وأهلها.

قال : ((أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ)) يعني منذ نزلت عليه هذه الآيات ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ مضى عشر سنوات يدعو إلى التوحيد ، عشر سنوات كاملات لم يأمر بصلاة ولم يأمر بصيام ولم يأمر بحج ولم يأمر بأيٍّ من العبادات ، عشر سنوات خالصة يأمر بالتوحيد ويحذر من الشرك ، ليس يدعو قومه إلا لـ «لا إله إلا الله» ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) ، يحذرهم من عبادة الأصنام يدعوهم لترك عبادة الأصنام والبعد عنها ، مضى على ذلك عشر سنوات ، عشر سنين يدعو إلى توحيد الله عز وجل أي قبل فرض الصلاة ، الصلاة نعرف مكانتها من الدين وأنها عماد الدين وأعظم أركانه بعد الشهادتين ، الصلاة لم تُفرض من أول الأمر بل بقي عليه الصلاة والسلام منذ أُرسِلَ عشر سنوات لم تفرض الصلاة فضلاً عن بقية الفرائض التي هي غير الصلاة .

قال : ((أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَبَعْدَ الْعَشْرِ)) بعد أن أتم عشر سنوات داعياً إلى توحيد الله ((عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ)) أُسْرِيَ بجسده عليه الصلاة والسلام وروحه جميعاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء: ١] ثم عرج به عليه الصلاة والسلام إلى السماء ، إسرائاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليلاً ثم عروج إلى السماء ، عروجٌ إلى السماء في ليلة واحدة وجاء الصباح عند قومه؛ ما المسافات التي قطعها؟ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهذه أقصر مسافة قطعها في رحلته تلك ، ثم من المسجد الأقصى عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، من الأرض إلى السماء الدنيا إلى السماء التي تليها إلى السماء التي تليها حتى بلغ سدرة المنتهى عليه الصلاة والسلام ، وقد جاء في بعض الأحاديث والآثار «أن بين الأرض والسماء خمسمائة سنة ، وثخن كل سماء خمسمائة سنة ، وبين كل سماء وسماء خمسمائة سنة» ، كل هذه المسافات قطعها عليه الصلاة والسلام في ليلة واحدة! حتى بلغ سدرة المنتهى فأوحى إليه ربه جل وعلا ما أوحى ، وسمع وحي الله من الله ، وسمع كلام الله من الله ، وأمره بالصلاة خمسين صلاة في اليوم والليلة ، فرضها عليه وعلى أمته خمسين صلاة في اليوم والليلة ، ونزل عليه الصلاة والسلام بهذه الفريضة ، خمسين صلاة في اليوم والليلة نزل بها ، فلقاه موسى عليه السلام وسأله فأخبره ، قال : «أمتك لا تطيق هذا، سل الله التخفيف» فرجع وطلب من ربه التخفيف وتردد بين موسى وبين الله كما جاء في الحديث إلى أن حُفَّتْ إلى خمس صلوات، وهي خمس بالعمل وخمسون بالأجر ؛ لأن الحسنه بعشر أمثالها ، فنزل عليه

الصلاة والسلام وفرضت عليه الصلوات الخمس وعلى أمته ونزل بهذه الفريضة ؛ هذا بعد عشر سنوات من البعثة ، يعني كان عمره عليه الصلاة والسلام خمسين سنة ، أتم الخمسين حينئذ فرضت الصلاة ، ونزل عليه الصلاة والسلام بهذه الفريضة ، وكذّبه قومه وسخروا منه وله معهم في هذا وقائع معروفة في كتب السيرة حول الإسراء والمعراج وتكذيب قومه ، وأصبحوا يسخرون منه وجاءوا إلى أبي بكر رضي الله عنه وقالوا إنه يزعم كذا -يريدون تنفييره منه- ، قال : «إن كان قال ذلك فقد صدق» صديق الأمة رضي الله عنه وأرضاه .

فالشاهد أنه نزل بذلك ، ومن عجائب حال بعض أمته أن الصلاة التي هي مفروضة عليهم في اليوم والليلة خمس صلوات لا يهتمون بها ولا يواظبون عليها، والاحتفال بليلة الإسراء والمعراج الذي هو ليس مشروع أصلاً ولا مأمور به ولا دليل عليه لا يفوتونه أبداً!! فالفرض الواجب لا يُعْتَنَى به والأمر المحدث لا يفوت ولا يضيّع!! وهذا من سوء الفهم وعدم البصيرة ؛ الصلاة التي هي فرض ، يعني نحن من أعظم ما نستفيد من الإسراء والمعراج فريضة الصلاة والمحافظة عليها وأنها أهم الدين ، يعني الحج فرض عليه وهو في الأرض ، الصيام وهو في الأرض ، بقية الفرائض وهو في الأرض إلا الصلاة خصت بأن عرج به عليه الصلاة والسلام إلى السماء السابعة إلى سدرة المنتهى وسمع الأمر والفرض بالصلاة من الله بدون واسطة ، سمع كلام الله من الله ونزل بها ، ثم يأتي بعض الناس ويضيّعون الصلاة المفروضة!! حتى ليلة الاحتفال بعضهم يحتفل إلى الصباح وينام عن صلاة الفجر ، فالفرض يضيّع والأمر المحدث يواظب عليه ولا يضيّع ولا يفوت! فهل هذا هو الإتياع ؟ وهل هو هذا علامة صدق المحبة للرسول عليه الصلاة والسلام !!؟

ولهذا يحتاج كثير من الناس إلى أن يعيد النظر في طريقة دراسته للسيرة وطريقة استفادته من هدي النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلا يحال الدين إلى مواسم للاحتفالات ، هذا يحتفل بالمولد وهذا يحتفل بالإسراء والمعراج وهذا يحتفل بالهجرة وهذا يحتفل .. والفرائض تضيّع والواجبات لا يُهْتَمُّ بها ، ويصبح الأمر مواسم للاحتفالات . وإذا نظرنا في تاريخ الصحابة والتابعين لهم بإحسان لا نرى فيهم مثل هذه الاحتفالات ؛ وهم أشد الناس حباً للنبي عليه الصلاة والسلام وحرصاً على إتياع هديه والسير على منهاجه صلوات الله وسلامه عليه ، لكننا نرى فيهم مسارعة للخيرات ومسابقة إلى الفرائض والطاعات ومحافظة على الرغائب والمستحبات ؛ هكذا مضت حياتهم بحسن إتياع وحسن اتئساء وبُعد عن البدع والأهواء .

قال رحمه الله تعالى : ((وبعدَ العشرِ عُرِجَ به إلى السماءِ وفُرضتْ عليه الصلواتُ الخمسُ، وصَلَّى في مَكَّةَ ثلاثَ سنينَ)) أي صلى الصلاة المكتوبة المفروضة ثلاث سنين ((وبعدَها أُمِرَ بالهجرة إلى المدينة)) يعني بعد أن أمضى ثلاثة عشر سنة بعد الرسالة أمر بالهجرة إلى المدينة ؛ لأنه أُوذِيَ في مكة أشد الأذى ، حتى في صلاته وهو عليه الصلاة والسلام يصلي ساجد لله يأتي بعضهم بسلى الناقة ويضعه على ظهره عليه الصلاة والسلام ، أُوذِيَ أشد الأذى وتمالؤا على قتله كما تقدم فأذن الله عز وجل له بالهجرة إلى المدينة .

قال رحمه الله :

والهجرة: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، والهجرة فريضة على هذه الأمة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، وهي باقية إلى أن تقوم الساعة، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا لِمَ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧-٩٩]، وقوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، قال البغوي رحمه الله: «سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين بمكة لم يهاجروا؛ ناداهم الله باسم الإيمان». والدليل على الهجرة من السنة قوله صلى الله عليه وسلم: ((لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها)).

ثم قال رحمه الله تعالى : ((والهجرة: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام))؛ لما ذكر هجرة النبي عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة عرّف الهجرة قال : «والهجرة: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام»، وأن تكون هذه الهجرة يُتغى بها رضا الله عز وجل وإتباع رسوله ، ((فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)) ، يعني قد تكون هجرة الإنسان للتجارة لدنيا يصيبها ، أو تكون هجرته للنكاح ، إما أن يهاجر متاجراً أو يهاجر خاطباً ، لكن الهجرة التي تدخل في عمل الإنسان الصالح ويثاب عليها وهو مأمور بها: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ليخلص الدين لله وليحقق الإتيان للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

قال : ((والهجرة فريضة على هذه الأمة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، وهي باقية إلى أن تقوم الساعة)) وهذا لا يعارض حديث النبي ﷺ : ((لا هجرة بعد الفتح)) يعني بعد فتح مكة ، لأن المراد بقوله ((لا هجرة بعد الفتح)) أي من مكة لا هجرة من مكة بعد فتحها، أما الهجرة من بلد الشرك عموماً إلى بلد الإسلام فهي باقية إلى قيام الساعة . والبقاء في بلد الكفر والشرك ضياع للدين ، وتضييع للأمانة ، وتضييع للذرية، وتضييع للأهل ، وهدم للعقائد ، وهدم للأخلاق ؛ ولهذا قال : ((وهي باقية إلى أن تقوم

الساعة)) قال في الهامش الشيخ عبد الرحمن بن قاسم قال : «باتفاق من يعتد به من أهل العلم ، قال شيخ الإسلام : لا يسلم أحد من الشرك إلا بالمباينة لأهله؛ أي البعد عنهم ببدنه وعدم الإقامة بين ظهرائي الكافرين المشركين».

قال : وهي باقية إلى أن تقوم الساعة، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي بإقامتهم بين ظهرائي الكافرين وبقائهم بدول الكفر والكافرين والمشركين ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي لم مكثتم وبقيتم في هذه الأراضي لم تهاجروا؟ ﴿قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني عاجزين لا نقدر على الخروج ولا نقدر على الذهاب ﴿كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ يعني إلى المدينة ، تخرجوا من الإقامة بين المشركين عبدة الأوثان إلى أرض الله الواسعة إلى المدينة حيث تعبدون الله وتبقون مع أهل العبادة والإيمان والتوحيد!! قال: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ وهذا فيه أن تارك الهجرة بعدما وجبت عليه مرتكب كبيرة من كبائر الذنوب ، ولهذا تهدده الله جل وعلا وتوعده بنار جهنم ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ، يستثنى من هؤلاء العاجزين فعلاً الذين لا قدرة لهم ، لا يستطيعون من ضعفة الصغار والولدان والنساء والعجزة ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ هؤلاء مستثنون من هذا الوعيد ، أما الذي عنده قدرة وقوة ومكنة ولم يهاجر فهو عرضة لهذا الوعيد الشديد الذي جاء في قوله : ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ .

قال : ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي لا يستطيعون حيلة لمفارقة المشركين والانتقال إلى ديار المسلمين ولا قوة لهم على الخروج ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ ما يعرفون طريقاً للهجرة ، لو فكر أحدهم يهاجر ما يحسن ولا يعرف ولا يهتدي للطريق ، ليس بالقوي النشيط المتمكن وإنما هو رجل عاجز كهل مسن ، أو امرأة لا قدرة لها ، أو طفل صغير ؛ فمثل هؤلاء يستثنون ويعذرون ؛ ولهذا استثناهم الله جل وعلا قال : ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُرَ لَهُمْ﴾ أي يتجاوز عنه هؤلاء المستضعفين الذين لا حيلة لهم ولا سبيل لهم .

قال : ﴿ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ وختم الآية بهذين الأسمين فيه دلالة على أن الله سبحانه وتعالى يعفو عمن كانت هذه حاله ، لأن تقوى الله بالاستطاعة « اتقى الله ما استطعت » وهؤلاء غير مستطيعين ولا قادرين عاجزين ، فمن كان من أهل الأعذار فمعفو عنه و« عسى » في القرآن واجبة كما قال ذلك أهل العلم . ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُو عَنْهُمْ ﴾ أي أن الله سبحانه وتعالى يعفو عمن كانت هذه حاله ؛ أي كان من أهل الأعذار ، أما من سواهم فإنه عرضة لذلك الوعيد والتهديد الوارد في قوله : ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ .

قال : ((وقوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِيَّ وَأَسْعَةَ فَيَأْتِي فَاغْبُدُونِ﴾)) أيضاً هذه فيها أمر بالهجرة والانتقال من بلد الكفر والشرك إلى بلد الإسلام ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِيَّ وَأَسْعَةَ فَيَأْتِي فَاغْبُدُونِ﴾ أي وخذون وأخلصوا لي الدين في أرضي الواسعة دون أن تبقوا مقيمين بين ظهرائي المشركين الكافرين .

ثم نقل عن الإمام البغوي المفسر رحمه الله تعالى في ذكر سبب نزول هذه الآية قال: ((سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين بمكة لم يهاجروا؛ ناداهم الله جل وعلا باسم الإيمان)) ؛ وهذا يفيد أن من لم يهاجر يكون مرتكباً لكبيرة ، لا يكون مرتكباً كفراً ناقلاً من ملة الإسلام ، وإنما يكون مرتكباً كبيرة من الكبائر وعظيمة من العظائم يستحق بها ذلك التهديد الوارد في قوله تعالى: ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ . وهنا في الآية قال : ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ فهذا يدل على أنهم ليسوا كفاراً لكنهم مرتكبين لكبيرة من الكبائر وعظيمة من العظائم ، وتعرضوا بها لهذا الوعيد وهو دخول جهنم وساءت مصيراً .

قال: ((سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين بمكة لم يهاجروا؛ ناداهم الله جل وعلا باسم الإيمان)) هذه المناداة باسم الإيمان أو {يَا عِبَادِيَ} كما قدمت دليل على أنهم ليسوا كفاراً ولكنهم مؤمنون ناقصو الإيمان ، مؤمنون مرتكبون لكبيرة من الكبائر ، ومرتكب الكبيرة معرض للوعيد ، وهؤلاء يدل على أن فعلهم هذا كبيرة من الكبائر قوله جل وعلا : ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ ؛ لأن التهديد بجهنم أو بسخط الله أو بذكر اللعن «لعن الله من فعل كذا» ، أو أن يقال : «ليس منا» ، أو : «لا يؤمن» أو نحو ذلك هذا كله يدل على أن الأمر كبيرة من الكبائر ليس من صغائر الذنوب .

فأفادت هذه الآيات وهذه النصوص أن من لم يهاجر من بلد الكفر إلى بلد الإسلام ورضي بالإقامة بين ظهراي الكفار والمشركين مع بقاءه على دينه يكون بذلك مرتكباً لكبيرة من كبائر الذنوب كما هو واضح في دلالة هذه الآيات وفي كلام أهل العلم رحمهم الله تعالى في معاني هذه الآيات .

قال : ((والدليل على الهجرة من السنة)) ؛ والدليل على أن الهجرة فريضة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام من سنة النبي عليه الصلاة والسلام : ((قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تَنْقَطِعُ الهجرةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ»))

وكيف تجمع بين قوله ((لا تَنْقَطِعُ الهجرةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ)) وبين قوله في الحديث الآخر ((لا هجرة بعد الفتح)) عرفنا أن المراد بقوله : «لا هجرة بعد الفتح» أي من مكة ، لا هجرة من مكة بعد فتحها لأنها أصبحت دار إسلام ، فلا هجرة من مكة بعد الفتح ، أما من ديار الكفر عموماً فالهجرة باقية وغير منقطعة إلى قيام الساعة ، لا يحل للمسلم أن يبقى بين ظهراي الكفار .

قال : ((والدليل على الهجرة من السنة قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تَنْقَطِعُ الهجرةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ» ، ولا تنقطع التوبة حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»)) ؛ «لا تَنْقَطِعُ الهجرةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ» بمعنى أن الهجرة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام باقية إلى أن يأتي الوقت الذي لا تنفع فيه التوبة ، والتوبة لا تنفع إذا طلعت الشمس من مغربها ؛ وهذا علامة من علامات الساعة وأمانة من أماراتها الكبار ، فإذا طلعت الشمس من مغربها آمن الناس كلهم جميعاً ، أعلنوا إيمانهم وصرّحوا بإيمانهم ؛ لكن لا ينفع الإيمان ، إذا طلعت الشمس يفاجأ الناس يوم من الأيام وإذا الشمس تطلع من المغرب! فإذا رأوا هذه الآية الباهرة والعلامة العظيمة من آيات الله يؤمنون ، وهذا يسميه أهل العلم «إيمان مشاهدة» يعني شاهد الآية ، شاهد اختلال الكون وتغيره وشاهد بدأ العلامات العظمى لقيام الساعة فبدأ العالم يتغير وانتظامه بدأ يتغير؛ الشمس بدل أنها من أول الزمان تطلع من المشرق إلى المغرب فتغيب ، يُفاجئون في يوم من الأيام وإذا بها طالعة من المغرب اتجاهها عكسي من المغرب إلى المشرق ؛ فيرون هذه الآية ويعلنون حينئذ الإيمان يؤمنون ؛ لا ينفع الإيمان . ولهذا العلماء يقولون أخذاً من الأدلة : الإيمان لا ينفع عندما تطلع الشمس من المغرب لأنه إيمان مشاهدة ، ولا تنفع عندما يغرب الإنسان ؛ عندما يعاين الموت ويشاهد الموت وتغرر روحه لا ينفع إيمانه ، مثل إيمان فرعون ﴿أَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] لما أدركه الغرق أعلن هذا الإيمان هذا يسمى إيمان مشاهدة ، الأول مشاهدة الآية التي هي أمانة وعلامة على قيام الساعة، وإيمان الغرغرة أيضاً إيمان مشاهدة للموت ؛ وهذا الإيمان لا ينفع وهذا الإيمان لا ينفع .

الشاهد أن الهجرة باقية مستمرة دائمة إلى أن تطلع الشمس من مغربها ، إذا طلعت الشمس من مغربها وهاجر الإنسان تائباً لا تفيده ، يعني رأى الآية وهاجر لكونه رأى الآية لا تفيده ، أما قبل طلوع الشمس من مغربها فالتوبة بالهجرة مفتوحة بابها ، لا يزال باب التوبة مفتوح حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت من مغربها طبع على كل قلب بما فيه . قال : ((ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها)). . والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.